

# الشيطان

لمحمد بن سريان

بقلم الأستاذ محمد محمد مطايع

فأعربت عن موافقتها بإشارة من عينيها ،  
ولإعانة من رأسها .. نحت بهما ولدها  
ليجعل ينقل القمح .. وليتركها وحيدة  
تموت ! فلم يمالك الطبيب نفسه وضرب  
الأرض بقدمه غاضبا ، ثم صرخ في وجهه قائلا :  
أنت وحش بلا قلب .. وإلى  
لاستعك من عمل أى شئ .. فاعلم ! وإذا  
كنت حصر حقيقة على نقل القمح اليوم  
فلتذهب لإحضار الأم رايت لتعني بأمك .  
وإذا .. نصبتني فسوف تموت كالكلب حين  
يأتى دورك وتسقط مريضا .. فاعلم ؟  
ولت الفلاح يعاني عذاب التردد رهة  
مشتت الفؤاد بين خوفه من الطبيب  
وكراهيته لإنفاق النقود . ومضت رهة  
راح فيها يحسب ، ويقدر .. وأخيرا سأله  
متلعنا ..

— وكم تنقضى الام رايت على ذلك ؟

فصاح الطبيب قائلا ..

« وكيف أعرف ؟ هذا يتوقف على

المدة التي تريدها فلتتفقا فيما بينكما ..

ولكنني أصر على أن تكون هنا في خلال

كان الفلاح قائما بجانب — سرير  
المختصرة — بتبادل الحديث مع الطبيب ، بينما  
عددت المعجوز في استسلام ؛ متيقظة الوعى  
نصت لما يدور بينهما ! .. إنها تموت !

قبلت المعجوز هذه الحقيقة في شئ  
من الرضاء ، فقد أن أعت عامها الثاني بعد  
التسميم تعرف أن نهايتها قد أوفت

ومن خلال نافذة الحجرة تدفقت أشعة  
شمس يولبو القانظة ، فغمرت أرض الحجرة  
السوداء الوعرة وأشاعت فيها قيظ الصيف  
وأفاحت الريح الساخنة رائحة الأرض ،  
والقمح والدريس ، وأوراق الشجر الجافة  
ورفع الطبيب صوته قائلا ..

إنوريه ! إن تتمكن من أن تترك  
أمك بمفردها ، فربما تموت من لحظة إلى  
أخرى ..

فأجاب إنوريه مدعورا :

— ولكن القمح في الحقل ، ولا بد من نقله

إلى الداخل ، وربما يدوم رقادها مدة طويلة

والحو الآن ملائم ، فما قولك يا أمه ؟

وملك المعجوز جشع الزماندين ،

ساعة واحدة . عجم ؟ »

يقول ..

« عجم ... سلامتك ! »

وأخيرا انتهى الأمر . فأجابته .

حسن ! لا تعصب . وسوف أذهب الآن »

ولما خلا بنوريه بنفسه تلقت إلى أمه

ثم قال لها في شيء من الاستسلام :

« إني ذاهب لإحضار الأم رايت

فاطبيب فدأمر على أن تأتي . فلا تقلقي على

نفسك وسوف أعود حالا »

ثم عادوا للمجال في عملة ظاهرة .

\*\*\*

أما الأم رايت فهي تسالها بمروقة

تتم . سامرة وممن يمس من أهل القرية وجميع

ما يحاورها من القرية . فهي التي تدرجهم في

كلماتهم . وهي سامرة كمنافحة آخر العام .

بمروقة الأخلاق . فقروا . قد انجى ظهرها

حتى أصبح حرا . وكان ذلك من أثر

بزمتها التي لا تسكف عن العمل في الأكفان .

ويمكن أن يقول إن هناك جاذبية بينها وبين

الموت . ومجديتها يدور دائما حول من

شاهدت من سحر . . . وجميع ما حضرته من

أوان الموت . فبعض كل ذلك في فاصيل

دقيقة لا تتغير أبدا . كما أنه يتحدث عن

خلقات بديهيته .

وحين ذلج بنوريه إلى داخل منزلها

ألفاها عبد عمال الزهرة لبنات القرية :

محسبها . . . فأدارت له رأسها وهي

فأخرجت العجوز يديها من الماء .

فجوى على سابعها وتساقط قطرات شفافة

زرقاء . . . سألتها وهي تتظاهر بالمعطف . . .

وعلى حالها سيئة ؟

يقول الطبيب إنها ابن تعشى إلى

بعد الظهيرة . . .

إن فهي في حالة سيئة جدا

و . . . بنوريه على تسرعته . . . فلم يكن

يبدو أن يتسلف عما أعده في عقله مرة واحدة .

ولما نجر عن إصلاح الأمر اندفع قائلا . . .

وكم تريدني في مقابل رعايتك ها

إلى أن تموت ؟ أنت تعرفين طبعاً أننا نسنا

أغنياء . . . فنحن لا نحتمل آخر خادم .

وقد كانت أمي هي التي تقوم بالخدمة

وأجابه في لهجة رجل الأعمال . . .

لدي سمران : فرنكان لليوم .

وفرنكان ليلة . . . ذلك طبعاً للأغنياء . . .

وفرنكان لليوم وفرنكان للييلة للآخرين . . .

وسأني . . . أنت ثلاثة فرنكات لكل

يوم بيلته . . .

وفكر بنوريه لحظة . . . فهو يعرف

انتهت « ... بيد أن أمه الخائف كان ياديا  
في نبرات صوته !

ولكن المعجوز لم تمت ! بل كانت ممددة  
على ظهرها فوق سريرها المتآكل ، وبدها تمسك  
بطرف اللحف الأحمر ، مبروكة ضيقة من  
أثر الروماتزم والعمل الشاق وجميع المهن  
التي قامت بها زهاء المائة عام

وأقبلت الأم رايت على السرير ثم  
تحصت المرأة في عناية نائمة . قامت  
بعضها .. وتحسست صدرها .. ثم أنصت  
إلى تنفسها .. وسألها عدة أسئلة لتسمع  
كلامها .. وبعد أن أمضت معها مدة طويلة  
غادرت الغرفة وخلفها ينوربه

لقد قرأها على أن المرأة المعجوزة  
تعبس حتى الليل

وسألها ينوربه .. « هبه ! »

فأجابت المرأة

تنتهي حياتها في خلال يومين  
أو ثلاثة .. وسأقبل المهمة في مقابل سنة  
فرنكات دفعة واحدة .. فصاح قزعا :

سنة فرنكات ؟ سنة فرنكات ؟  
هل هي صفقة مالية ؟ واندقلت لك من قبل  
إن أمي لن تعبس أكثر من خمس أو ست  
ساعات

لبيت المساومة فترة طويلة ! فكلامها عبيد ..  
وأخيرا تظاهرت الأم رايت بالعودة إلى منزلها

أن أمه في حالة سيئة ... كما يعرف متانة  
بياتها ... فرمما تظل أسبوعا وعما عما قاله  
الطبيب ... وأخيرا انتهى إلى قرار ...  
فأجاب ...

— لا ... لا ... أفضل أن نطلي  
عنا لإشرافك عليها حتى النهاية ... هي  
مقامرة لكل منا ... فالطبيب يقول إنها  
ستموت حالا ، فإذا ما وقع الأمر يكون ذلك  
في صالحك ... أنا ! أنا إذا تأخرت  
حتى الغد ... فإني أربح بينما أنت تخسرين ...  
فرمته المرأة في شيء من الدهشة !

فلم يحدث لها أن قامت بمثل هذا العمل في  
شكل اتفاق محدد ... واستهوتها فكرة  
المقامرة ... بيد أنها خشيت أن يكون هناك  
فخ لها ... فقالت ...

— لا أستطيع الموافقة على شيء ما  
حتى أراها ...

— إذن فيها معنى ...  
ومن ثم جففت بديها وتمنته على  
الفور ...

وفي الطريق ... أطبق الصمت عليهما  
فرببسا بكلمة ... هي تسير في خطوات  
سريعة واسعة ... بينما كان الآخر يحجل  
في قفزات متلاحقة كما لو كان يتخطى  
قنوات تعترض كل خطوة في طريقه . ولما  
اقتربا من المنزل همس لينوربه قائلا : « لعلها

كان الشمس في مسوحه الأحمر يسرع  
الخطى وخلفه القسيس يسير مطرقا .. يتلو  
صاواته .. وخلفهم الأم رايت منحنية  
الظهر إلى حد كبير كي تساعد نفسها على  
السير .. ويدها مضمومتان على صدرها كما لو  
كانت في الكنيسة

ولهم إنوريه وعم يمرون أمامه من  
بعيد .. فسأل  
لن هذا القسيس ؟

فأجابه العامل الذي يساعده وقد  
كان أكثر إدراكا من سيده بأنه طمعا  
في طريقه إلى أمه ليباركها .. فلم يد على  
الفلاح أى دهشة .. ثم واصل عمله

ورجع القسيس بعد أن أدلت الأم  
بانتماء بأعترافها وترك المرأتين وحدهما في  
الكوخ المطبق الخناق ، وعادت الأم  
رايت تنظر إلى المعجوز وهي تموت !  
وأخذت تسأل نفسها .. إلى متى مظل  
طويلا هكذا !

وأخذ الظلام يحيم رويدا .. رويدا ..  
وهبت نسمة نقيّة باردة جمعت الصورة  
الزمنية الرخيصة تصطك بالهائط والستار  
التي كانت يوما ما بيضاء ، وأمست في لون  
الفيران .. صارت كأنها تريد أن تطير  
بعيدا لكي تهرب إلى الأبد كروح المرأة  
المعجوز !

ولما كان الوقت يمر والتمح لن ينقل نفسه  
إلى الداخل ، فقد وافق أخيرا .. وانطلق إلى  
قبحه الذي كان ملقى تحت أشعة شمس  
الحصاد الساطعة .. وذهبت المرأة إلى  
النزل ومعها حاجاتها .. فقد تعودت أثناء  
رعايتها لمن يموت أو من ماتوا أن تعمل في  
حياكة أشياء لها أو لهؤلاء اللاتي تقوم  
على رعايتهن .. ومن ثم تنقاضي على ذلك  
أجرا آخر

ونجاة سألت المعجوز مستفسرة :

— هل أدليت للقسيس بأعترافك الأخير  
بأم بانتم ؟ ففزت المعجوز رأسها أن لا ..  
والأم رايت ذات روح طيبة ! لذلك  
ففزت على قدميها جرة وهي تصيح فيها :  
— يا للسوء ! أحقيقة هذا ؟ سأذهب  
إذن فأحضر قسيسا

وأسرت إلى منزل القسيس مهرولة  
نما جمل الأطفال في ميدان القرية  
يوقنون أن حدثا ما قد وقع .. وارتدى  
القسيس مسوحه ثم أقبل على الفور يتقدمه  
الشمس وهو يقرع جرسا صغيرا .. فرفع  
الفلاحون في الخمل قبماتهم ووقفوا  
سامتين حتى اختفوا خلف المزرعة ..  
وتوقفت النساء عن جمع القش ثم رعن  
علامة الصليب .. وتفرقت الدجاجات مذعورة  
ثم أسرع إلى غابئها بين الحشائش بينما

أربعة أيام وربما بقيت أسبوعاً .. ومضى الخوف  
قلبها الخيل وأحست بنفس عيم على  
هذا الشخص الذي خدعها وعلى هذه العجوز  
التي يمكنها أن تموت ..

ومع ذلك عادت إلى عملها منتظرة  
وعيناها متعلقتان بوجه - الأم بانتقام -  
المغضن .. وأقبل إينوريه لتناول عداته ..  
وقد بدأ سرورا مشرح الصدر .. وبعد  
الغداء غادر المنزل مرة أخرى .. ومن  
المؤكد أنه كان وهو مشغول بصفحة  
في الحقل في حالة سرور ومسرحة  
بين يد اليأس يرحف إلى فؤاد الأم  
رايت رويدا .. رويدا .. بكل دقة  
تمر عليها تبدو وكأنها قد سرقت منها !  
فالوقت قد وشتت برغبة مائة رغبة  
وحشية في أن تسك بهذه العجوز التافهة  
العنيدة .. بهذه الخبيرة الماكرة ، من رقبته  
ثم بضغطة واحدة عليها تقف هذه الأنفاس  
السريمة الضعيفة إلى الأبد .. ولكنكم  
تذكرون أن هذه مخاطرة ! ونجاة خطر لها  
شيء ما .. فسألها

- ألم ترى الشيطان بعد

مهممت .. أن لا ..

وحينئذ أخذت المعرصة تتكلم بفر

حكايات لتفرغ عقل العجوز التهاكة  
أثناء موتها ..

وكانت العجوز ترقد بلا حراك ..  
عينها مفتوحتان مستسلتان في انتظار  
الموت الذي يبدو وكأنه قريب جدا ..  
ولكنه يتأخر ! وأنفاسها تخرج متلاحقة  
من حنجرتها التآكلة فتحدث ضجيجا  
كالصفيح سوف يصمت عما قريب .. وحينئذ  
سينقص من العالم امرأة لن يفقدها أحد  
ولما أقبل الليل عاد إينوريه .. وحين  
اقرب من السرير رأى أمه مازالت على  
قيد الحياة ؟ فسألها كم عداته حين لا تكون  
في صحة طيبة ..

- أمك .. لماذا تشمرين ؟

ثم صرف الأم رايت على أن تعود  
في الساعة الخامسة من مساء الغد .. وعادت  
فعلا في الفجر .. وكان إينوريه يتناول  
حساء الذي أعده بنفسه قبل أن يخرج إلى  
عمله وسألته مستفسرة :

- هل مات أمك ؟

فأجابها وهي عليه غمة فقد أن لا  
.. ويبدو أنها تحسنت شيئا ما .. ثم  
غادر المنزل وترك الأم رايت تشرب  
وقد بدأ القلق يظهر عليها .. فوجدت أن  
حالة العجوز لم تتغير .. تنفس بصعوبة ..  
ممددة بلا حراك .. عيناها مفتوحتان .. ويدها  
مطبقتان على طرف اللحاف ! وهنا أيقنت  
المرأة من أنها قد نلت هكذا يومين أو

قالت .. قبل أن تموت العجوز بعدة دقائق يظهر الشيطان لمن يموتون وفي يده مكنسة وعلى رأسه وابور المطبخ .. يطلق صرخات عالية ! وحين يظهر هكذا يكون قد انتهى كل شيء ولا يبقى لمن يموت سوى بضعة دقائق . ثم أخذت تعدد جميع من ظهر لهم الشيطان في حضرتها هذا العام .. جوزفين لوازيل .. إيلي راتيه .. سوفي بارفيه .. وسيرافين جوزيه .. فارتجفت الأم بانتام بشدة ثم أخذت تتقلب في سريرها .. تحرك يدها من ناحية إلى أخرى .. وتحاول أن تدير رأسها لكي تحقق في آخر الغرفة !

ونجاة توارت الأم رايت خلف السرير ثم أخرجت من صوان الملابس قطعة قماش لفحتها حول جسدها وعلى رأسها وضمت الوابور ثم أمسكت بمكنسة في يدها اليمنى ، ويدها اليسرى أمسكت بدلو أخذت تحركه في الهواء لكي يحدث ضوضاء .. ثم أخذت تطلق طنيناً مفرعاً وهي تضرب بقدمها الأرض .. ثم اعتلت الكرسي وبدأت تروم وتطلق صرخات حادة فرجف الدلو الذي كانت تخفي فيه وجهها .. ثم أخذت تهدد الفلاحة العجوز بالمكنسة عما كان يعمل الشيطان في تشيلية

شاهدتها مرة ما ...

وبقوة فوق طاقة الجهد الإنساني حاولت الأم بانتام وقد تملكها جزع فظيع أن تنهض وتفر .. فلم يرتفع سوى كتفها وصدرها قليلاً ثم سقطت في مكانها وهي تطلق شهقة مكتومة ونامت إلى الأبد ! وفي هدوء واطمئنان أعادت الأم رايت كل شيء إلى مكانه .. المكنسة في الركن بجانب الصوان ، وقطعة القماش في داخله .. والوابور على الرف .. ثم ألصقت الكرسي بالحائط .. وألقت بالدلو في المدفأة .. وبعد ذلك قامت إلى العجوز فأطبقت عينيها المفتوحتين ثم وضعت إناء فوق السرير سكبت فيه بعض الماء المقدس وغسست غمس البنفس الذي كان معلقاً على الدولاب .. ثم ركعت في حماس وإخلاص وبدأت تفسد للميتة صلواتها ..

وفي المساء لما عاد إينوريه إلى منزله وجدها تضيء .. وفي الحال بدأ يحسب فوجد أنها استولت منه على فرنك ! لأنها قضت ثلاثة أيام وليلة واحدة .. أي خمسة فرنكات .. بينما اتفق هو معها على أن يدفع لها ستة

محمد محمد مطار